أنـا والروايـة

شهادة أدبية

لملتقى الإمارات للإبداع الخليجي

الدورة الرابعة

٩-٢٠١٣/١٢/١١م

دلال خليفة

أنا والرواية.. عنصران بينهما علاقةٌ ما، ينموان معاً، يتطوران معاً، يمل أحدهما من الآخر.. يهجره، ولكن تظل ثمة ذكرى، وثمة وعدٍ بلقاءٍ أخير لا بد أن يكون الأجمل..

أنا والرواية عنصران يحاولان التنظير لبعض ما يحدث في هذا العالم، يحاولان البحث عن إجابات، عن تفسيرات، يحاولان أن يقترحا هذه التفسيرات، يحاولان أن يستثيرا الأسئلة.. ويحاولان أن يستكشفا معانيَ جديدة للحياة..

أجمل ما سمعته عن الرواية ما قالته إحدى صديقاتي من أنها لوحةٌ يرسمها كاتبها، وفعلاً، هي أشبه باللوحة، فالكاتب يكتبها ولا يفكر في كيف تبدو للآخرين، ولا يفكر في ما سيقوله النقاد.. إنه يرسم فحسب، ويستمتع بالرسم. ريشتي أحياناً تكون دقيقةً لترسم صورةً أكثر التصاقاً بالواقع، وفي أحيانٍ أخرى قد تكون حالمة، ولكنها في النهاية تحاول رسم صورةٍ أراها هي الأنسب لإبراز فكرتي. قد يراها آخرون فيقولون، لو أزيل هذا اللون لكان أفضل، أو أضيف هذا الرقم لكان أجمل، ولكن الفنان لن يغير لوحته..

الواقع يفرض نفسَه بقوةٍ عليَّ وعلى رواياتي. قد أختلق البيئة الخاصة بشخصياتي، قد أنتقي زمناً ماضياً، قد أركّب الشخصيات لتحمل سماتٍ من ثقافاتٍ متعددة، أو من ثقافاتٍ مصطنعة، إلا أنني لا أتجاوز الواقع إلا لأعود إليه في النهاية.. دائماً يفرض نفسه لأنه.. الواقع.. ومن بين أحداثي ورموزي الخيالية كثيراً ما يبرز الواقع المعاصر.. في روايتي التي لم أنهها بعد أو قصتي الطويلة ربما، أحاول أن ألتف عليه كما ألتف على المكان والزمان، إلا أن الواقع قد يطل برأسه بين الفينة والفينة..

وبما أن الرواية تستلهم الواقع بأسئلته غير المجابة وتحاول تقمصّه في ثنايا محاولتها لتفسيره، بما يجعلها تتماشى معه وتتعمق فيه، فكثيراً ما تسجّل أحداثاً تتشابه وبعض ما جرى في الماضي من غير أن يكون كاتبها قد لاحظها، وكثيراً ما تستشرف المستقبلَ المبنيّ عليه فتسجل أحداثاً تسبق بها التاريخ والواقع الذي يأتي أحياناً بمثلها بعد سنين. قالت لي إحدى زميلاتي في العمل عندما قرأت "من البحار القديم إليك": "عندما وضع الربان قدمه في القارب الذي سيأخذه إلى السفينة الأخرى للتفاوض معهم خِلتُ نفسي أرى أنور السادات وهو يصعد الطائرة للتوجه إلى كامب ديفيد".. هذا مع أن ذهاب أنور السادات إلى كامب ديفيد لم يمر بخاطري ولو من بعيد أثناء تشكل الرواية في ذهني ولا أثناء كتابتها. وفي هذه الرواية أيضاً مشهدٌ آخر لأحد محاربي السفينة الأخرى يخرج من الداخل - بعد شبه انتصارٍ للسفينة التي تمثل الشرق- بصفحةٍ قد سرقت من مخطوطهم فيعقد بها صفقةً لإنهاء الحرب الدائرة، فيأخذها الربان ويوقف المعركة ثم يندم فيما بعد لأن ما كان يرمي إليه من الحرب التي أفنت كثيراً من بحارته لم تهدف على

الإطلاق إلى تحقيق هذا المكسب الصغير.. هذا الموقف حدث بشكلٍ آخر بعد إصدار الرواية بسنين طويلة، وأفضل أن أحتفظ لنفسي بالـ "متى" والـ "كيف"..

أنا والرواية نتسابق في استلهام اللغة، فتغلبني وأغلبها.. تغلبني عندما يُملي عليّ موقفٌ ما أو مشهدٌ ما طريقةً معينة في السرد، وأغلِبها عندما أمارس حريتي في استخدامِ غير المألوف في السرد واللغة، أو استخدام الكلمات بشكلٍ آخر.. فمثلاً ارتأيت في رواية دنيانا... مهرجان الأيام والليالي، أن أستغل البعد المسافاتي في كلمة "هناك" فقلت: هناك جداً..

أنا والرواية نتشارك المعلومات.. عندما تعرفت على الرواية ككاتبة كان عقلي قد تزود ببيانات كثيرةٍ عن هذا العالم.. هذا العالم، وليس هذه البقعة فقط من الأرض التي تسمى الخليج، والتي تسمى بتحديدٍ أكبر، قطر.. لذا فقد جاءت أعمالي الأدبية معنيّةً بإنسان هذا العالم الكبير الذي أُطلُّ عليه من نافذةٍ فتحها عليه دفءُ عالمي الصغير..

منذ الطفولةِ ونحن هنا في الخليج نُطلُّ على كل الثقافات الإنسانية تقريباً.. الأفلام والمسلسلات التي شاهدناها في مراحل تكويننا الفكري أغلبها أجنبيٌ تماماً أوعربي، والكتب المتميزة التي أثرت خبراتنا الحياتية كلها تقريباً قادمةٌ من الخارج.. جيراننا عربٌ من الشرق القريب وكذلك معظم مدرسونا وزملاؤنا.. وعمالنا قدموا من الشرق البعيد.. هذا يعني أننا انفتحنا على العالم الأكبر، ومن ينفتح على العالم الأكبر فلا بد أن يظهر في كتاباته تأثيرُ هذا العالم، وأحياناً على حساب الوطن الأصغر..

لذا فبعض كتاب الخليج يبدو وكأنهم يكتبون عن مجتمعاتٍ أخرى يتصدرها المجتمع المصريّ طبعاً حيث كانت مصر سباقة إلى ولوج عالم الأدب والسينما والتلفزيون.. وهناك من يظهر تأثير الثقافة الأجنبية على أعماله..

وهناك نموذجي أنا الذي تشرب الثقافات الأخرى فلم تجذبه للكتابة عن شخوصها وبيئاتها وإنما جعلته لا يتوقف عند ثقافة موطنه، كما سحرته الحكاية في طفولته، التي تحكي دائماً عن شخصياتٍ بلا هويّاتٍ واضحة، لأنها تتسامى على القوميات، وكذلك من ناحيةٍ أخرى سحرتني الفكرة ودواخل الإنسان كمخلوقٍ له تكوينٌ معين منفعلٌ بما حوله، فتكوَّن لي من كل هذه المؤثرات اتجاهٌ نحو الرمز وأصبح بطلي إنساناً عالمي النفسية والتكوين والهم، لا ينتمي لأيٍّ من الفئات البشرية المعروفة بوجهٍ خاص، ومن ثَم فقد اقتضى الأمر اختلاقِ بيئاتٍ تناسب هذا الإنسان غير المرتبط بأيدولوجية معينة، الانسان الذي يمثل الإنسان في أي بقعةٍ على الأرض، الإنسانِ الذي أسميته فيما بعد "الإنسان المجرد".. الذي أستفز في زيارتي الأخيرة للإمارات أحد الأساتذة الحضور رافضاً الفكرة لأنه يؤمن أن الكاتب يجب أن يكتب من قلب بيئته، ومن ثم

فشخصياته الأدبية يجب أن تمثل وطن كاتبها بخصائصه المعروفة، التي بتعريف العالم بها ينجح الكاتب. وكان ردي أن كتابة الأدب عمليةٌ حرة لا يُفرض فيها موضوعٌ ولا اتجاهٌ على الكاتب، ولا يُملى عليه ما يكتب. فإن شاء أن يكتب عن إنسان وطنه الصغير فلا بأس، ومن شاء أن يكتب عن إنسان عالمه الكبير فلا بأس. وبطبيعة الحال يحب القراء أن يتعرفوا على الشعوب الأخرى بخصائصها وطقوسها، ولكن هناك دائماً النوع الآخر الذي يتعاطف مع قضايا الإنسان كإنسان فحسب.

وتمتعي بالحرية الأدبية يجعلني لا ألقي بالاً لمن يحاسبني زاعماً أنني لا أكتب من واقعي، مع أني كتبت روايتين من رواياتي الأربع عن واقع قطر والخليج، وهنا يجب أن أنوه إلى أن من يقول ذلك لا يحكم عليّ من خلال الرواية فقط وإنما من خلال كل ما أكتبه من بقية أشكال الأدب والذي يستحوذ فيه على نصيب الأسد الإنسان المجرد، وأعني بالتجرد هنا التجرد من الجنسية وأحياناً الإسم وأيّ سمةٍ تُرجعه إلى فئةٍ بشريةٍ محددة.. لأنني أحب أن أكتب عن دواخل الإنسان لا خوارجه ..

أنا والرواية والإنسان المجرد نقول ها نحن ذا، من هذا العالم جئنا، ولهذا العالم نكتب، ولا هانت عوالمنا الصغيرة.

وشكراً